الديموقراطية في مدرسة البلاغة*

إيمانويل دانبلون

ترجمة: أحمد الفوحي

تقديم

تعـرف البلاغة بأنها فن الإقناع بامتياز . وتكمن جدوى أي خطاب في تأثيره على المخاطبين، وجـرهم إلى صـف الخطيب . وتعرف الديموقراطية بأنها نمط الحكم الذي يختاره المواطن عن اقتناع، وينخـرط فـيه عن طواعية، ويشارك في تحديد قواعد اللعبة التي يرتضيها الجميع . فما الرابط بين فني الإقـناع اللغوي والسياسي؟ إنها ازدواجية ا لوجه المشترك بينهما . فللبلاغة وجه ناصع يتمثل في ضمان حرية المواطن، وتمكينه من الضغط على المؤسسات التي اختارها؛ ووجه قاتم خطِر يتمثل في التأثير سلبا علـى مفهـوم الحرية بالغواية والمناورة والضغط . ذلك أن الناس ليسوا سواسية أمام وسائل الإقناع . فمنهم الساذج اللغي تنطلي عليه لعبة الكلمات، ومنهم الحَذِر الذي يقاوم الإغراء اللفظي . وهكذا كانت البلاغة مجالا للمتناقضات؛ ففيها إمكان تحقق الديموقراطية وتهديد لها في الآن ذاته . وهذا ما دفع الـبعض إلى لجـم الـبلاغة وتدجيـنها، بـل تحديد ما البلاغة اللائقة وغير اللائقة . وهنا نستحضر السفسـطائيين وأفلاطـون وسـعيه لحماية المدينة من تجاوزاتهم بالدعوة إلى بلاغة حسنة أخلاقية غير متلاعبة، انطلاقا من المناداة بأن الوسائل معايير لتحديد الغايات؛ فلا قضية عادلة بوسائل غير شريفة.

إن مـا سبق بعض ما تثيره هذه المقالات التي تقدمها علامات إلى قرائها. وهي جزء من كتاب الحجـاج في النظم الديموقراطية الصادر سنة 2004 عن دار لابور ببروكسيل، للباحثة إمانويل دانبلون أستاذة البلاغة بجامعة بروكسيل الحرة.

الترجمة

مؤسسات وخطابات:

الكـل مخـتلط في المجـتمعات ذات الثقافة الشفهية : الأسطورة والعلم، العدالة والتبكيت، الوقائـع والقانـون . بـل إن هذا الأمر يعد إحدى خصائص خطاب المجتمعات المنغلقة، فهو يعم كل مناحي مؤسسات الحياة العامة، من دون تمييز بين الأجناس . وإذا كان الفكر ما بعد الحداثي أعاد إنتاج

شـــيء مـــن هذا التداخل في مجتمعاتنا، فإنه فعله بطريقة أشد ضلالا حتى إن المؤسسات لم تكن مهيأة لحالة كهذه. على حال الديموقراطية في بداية القرن الحادي والعشرين مرتبط بهذا الوضع [الجديد]: فقد تم الشـــروع في الخلـــط بين المؤسسات قبل خلط الخطابات. فالتلفزة تنظم حملات لاستدعاء الشهود، وقـــراءة صحافة الرصيف أصبحت جزءا من درس اللغة الفرنسية، والجامعات تنظم في حرمها مباريات كـــرة الطائـــرة الشاطئية، وتستعين في ذلك بالاعتماد على مداخيل إشهار الخمور. وبمنتهى الصراحة، اجتهدنا خلال العقود الأخيرة، في خلط الأجناس ظانين بذلك أننا نضمن للمواطنين قمة الديموقراطية. في حـــين أن تقســـيم المؤسســـات والخطابات المصاحبة يمكن من إقامة تراتبية بين مختلف المستويات، والفصـــل بين الأهداف المتعددة، وملاءمة الحديث لمستوى المخاطَبين. فالتراتبية لا تعني القسر، وليست كـــل بنية مرادفة للتحجر. فالتنظيم السياسي وكذا البلاغي لمختلف أمكنة الحوار شرط أساس لتطور الـــنقد الجاد والبنّاء. ولا يمكننا معرفة ما ينبغي نقده إذا لم نبدأ بهذه البَنْيَنَة. وللحكم على خطاب الآخـــر لا مناص من فهم كلامه وتحديده والإحاطة به. فبَنْيَنَة مختلف مجالات الحياة العامة هي الخطوة الأولى نحـــو إعمـــال روح النقد، السلاح الوحيد الفعال لضمان [قيام] الديموقراطية وحمايتها من مخاطر الانزلاق التي تتهددها باستمرار. ومن المؤكد أن كل تشدد في البنية يؤدي إلى تصلبات أي ما يعني، في المستوى السياسي، الطغيان. وفي المقابل، يجعل خلط الأجناس والمؤسسات المواطن أمام مؤسسة هائلة، هجيـــنة ومتضـــخمة تقمـــع أي إمكان للنقد وتوشك أن تبدد الديموقراطية. ويذكِّر هذا الوضع، مع الفارق، بما قصده روني جيرار René Girard عندما أثار انهيار المؤسسات الذي: " يزيل الفوارق السلَّمية والوظيفية ويجعلها تتداخل، والذي يمنح أي شيء مظهرا رتيبا وهائلا في الآن ذاته" (1).

البلاغة والتعليم:

وهكـــذا قـــايض التعليم، لمحاربة النخبوية باعتبارها العلامة القصوى للاديموقراطية، ثيابه الخشنة المُغْـــبرَّة الـــتي سادت حتى [مايو] 1968 بوضع يمكن تسميته وضع التراجع. فقد ساد الاعتقاد [حينئذ] بضرورة إزالة الحواجز، أو كما يقال "المسافات" بين الأساتذة والتلاميذ، لتلافي أي شكل من أشكال التســـلط والإذلال واستغلال النفوذ؛ وهي، مع الأسف، حقائق كانت سائدة في المدارس قبل [مايو] 1968. وباختزال الوظيفة في الشخص آنئذ، خُيِّل [للناس] أن ليس ثمة فرق بين الأساتذة والتلاميذ، ظنا مـــنهم أنهـــم سيضمنون بذلك احترام كرامة الصغار والمساواة بين الأفراد. ولكن تلك النوايا الحسنة كانت لها آثار سلبية؛ فقد انتقلت الانشغالات الأخلاقية إلى المعرفة ذاتها، وهو أمر بالغ الخطورة. فهذا

يعـــني بالملموس، أن العلاقة بين المدرس والمتعلم التي لا ينبغي لها أن تكون علاقة إذلال وقمع، يفترض فيها أن تحافظ على التراتبية الوظيفية فهذا يُعلِّم والآخر يَتعلَّم ؛ وهاتان الوظيفتان تحددان علاقة التعليم وتشـــرطان الوضـــع الـــذي يجب أن تكون عليه المعرفة . ومن هنا كانت أول عقبة حولت المعرفة إلى موضـــوع مفاوضة . فبعض الأساتذة أصبح يتحدث عن "بناء المعرفة المشترك " دون أن يرف له جفن، بـــل ذهب إلى حد قبول أخطاء التعليل أو أخطاء الإملا ء التي ينبغي للتلاميذ تجنبها، لأن هذه " النتيجة توافـــق مـــا علـــيه الأغلبـــية ". فهـــذه أمثلة لحالات قصوى، ولكنها تميط اللثام عن أن انحرافا معينا للديموقـــراطية، بما في ذلك جانبه الدراسي، يرى في كونية الأمر الواقع أساس اعتداده الذاتي، وهو أمر يثير الانشغال. ثم تَعْجب هذه الديموقراطية وتفاجأ بأنها فتحت الأبواب لكل أشكال الظلامية السياسية والمعـــرفيةوتهم العقبة الثانية اعوجاج المفهوم الأساسي للنقد . ذلك أن التلميذ أصبح مدعوا لممارسة روحـــه النقدية، في الوقت الذي جُرِّد فيه من كل الوسائل للقيام بذلك . فمن أجل انتقاد حكم ما أو رأي أو معـــرفة، يجـــب، بَداءة، الاعتراف بهذا الشيء كما هو لإدراكه وتعلمه . ويستحيل من الناحية الإنســـانية، انتقاد رأي لم نعرفه و لم ندرك استدلالاته . والحال أن التلاميذ ليس لهم في، أغلب الأحيان، إمكـــانٌ لممارســـة هـــذه القدرة فكيف يمكنهم ذلك وهم لا يملكون المعرفة وي ستخفون بها في غالب الأحـــيان؟ وفي المقابل علمناهم كيف "يعبرون عن رأيهم"، غير أننا باعدنا بينهم وبين إمكان أن يكون لهـــم رأي خاص . ففي المدرسة، أكثر من أي مكان آخر، استُبدِل التعبيرُ عن الآراء "الشخصية" بالنقد في الغالـــب الأعـــم ومن الملحوظ معاينة ارتباط عجز التلا ميذ المتفاقم عن تبني رأي شخصي حقيقي بصـــمت الـــبلاغة المطْبَق في المدارس منذ بضعة عقود . وحل محل الإنشاء الذي يعتبر أحد بقايا التعليم القـــائم على الحجاج، أشغال يتم فيها التعبير عن آراء ذات امتثال يعتبر مرآة غياب كلي لأي استئناس بالفكـــر النقدي وليس من النادر أن تجـ ـد طالبا بلغ المرحلة الجامعية وهو يخلط باستمرار بين التعبير عن آرائه الخاصة، وبين تلخيص نص، وهو تمرين يقوم على إيراد رأي الغير.

ويمكن اعتبار الرجوع إلى تدريس نسقي للحجاج في المدرسة، إحدى أولويات الديموقراطية في القـــرن الحادي والعشرين فقد يعطي تعلمُ ممارسة البلاغة، منذ التعليم الأساسي، في صورة ألعاب أو مناظـــرات خطابـــية، الأطفالَ الإحساسَ بالحرية أثناء ممارسة الكلام بذكاء؛ وهي ممارسة سيكتشفون بسرعة أنهم قادرون عليها . ويسهم إدراجُ تدريس بلاغي مقرون بتطبيقات كتابية في المرحلة الثانوية في تكـــوين التلاميذ ليصبحوا مواطني ديموقراطية الغد الأحرار والمسؤولين . ولا شيء ذا قيمة عند المراهق أكبر من الإحساس بأنه يكون،بنفسه، رأيا [خاصا به]طلاقا من نقده الشخصي لآراء الآخرين . وضد

الإحســـاس شبه المرتبك لدى البعض الذين يعتبرون الكلمة لاغية، وأنها قوقعة فارغة، وضد الإحساس المحـــبط و المخـــزي بترويج كلمات فارغة يستعملها الجميع، لم يمنع انهيار الإديولوجيات لا الفعل ولا الأمـــل، ولم تزدهر البلاغة مثلما ازدهرت عندما امتنعت عن خدمة أي إديولوجية مهيمنة . وهذه مهمة منوطة بالتعليم، خصوصا أن الجميع لا يجد في البيت وسطا اجتماعيا مؤهلا لتلقينه تعليما كهذا . وهذا هو المجال الذي يمكن أن نحارب فيه النخبوية وندافع فيه عن حق الجميع في ولوج المعرفة.

المواطن في مواجهة الخطاب:

وهـــنا نجد أنفسنا أمام حالة تناقض فقد تم تبني سـ ياسة حمائية أدت، رغما عنها، إلى استبداد أعمى مقرون بالظلامية . ذلك أنه إذا كانت حماية الضعاف أمرا أساسيا في الديموقراطية، فإنه لا ينبغي لهـــا أن تبلغ درجة الاستبداد، إلى الحد الذي تتجاوز فيه كل ما هو فعل و كرامة ومسؤولية في الحقوق التي استخلصها الناس لأنفسهم . وإذا كان الحفاظ على حقوق الأفراد غير متنازَع فيه، فهذا لا يعني أن نجعله مرادفا للصبيانية.

وهـــناك أكثر من هذا . ففي الغالب تتأسس مناهضة الفوارق على تصور للخطاب، مغلوط وخطِر في الآن نفسه وهو تصور يتمفصل في صورة خيار سخري :التفاهة أو العنف . وإذا كانت هذه النظرة إلى اللغة غير الملائمة مرتبطة مباشرة بغياب التربية على البلاغة، أمكن جزئيا تفسير هذه الظاهرة تاريخـــيا. فمـــن جهة أدت النظرة الاختزالية للعلم إلى حصر أقدم فن خطابي، قرونا عديدة، في دراسة الصـــور البيانـــية دراسة متصنعة ومملة، باعتبارها خصائص رجعية وتافهة تسـ م الفكر. والاعتقاد بهذا يتناســـى الدور الرائد الذي قامت به البلاغة في الاكتشافات العلمية وإيجاد الألفاظ لتسمية ما أنتجته .

ومـــن جهة ثانية، لما فقد الحجاج الدور المواكب لتقدم المعارف، سطا على التِّقانات الإعلامية الجديدة ليصـــبح أداة للاضـــطهاد الإديولوجي . لقد مكنت بدايات الإذاعة، ثم التلفزة فيما بعد، خطباء العامة والغـــوغاء مـــن الوصول إلى جمهور لم يكونوا ليبلغوه لولا هذه الوسيلة الجديدة . فكانت هذه النظرة المـــزدوجة إلى الـــبلاغة الإرث الـــذي انتهى إلى القرن العشرين . ألم يستعمل الناس لوصف موقف أو تصريح بأنه فارغ أو غير مطابـ ق للواقع [عبارة]إنه "زخرف القول"؟ ولوصف شخص مناور صلف إنه "خطيب مفوَّه"؟ فكيف تكون مادة تافهةً وخَطِرةً في الآن ذاته؟

البلاغة والعنف:

من المعلوم أن اللغة الإنسانية موجهة دائما إلى جماعة المخاطبين . وهذا ما يجعلنا نتزعج عند مناجاة النفس التي تبدو أمرغير معقول، ما دمنا لا نخاطب أحدا . فكل خطاب مهما كان بسيطا، هو بالضــرورة [خطاب]موجه إلى ما له حكم المخاطَب .وحتى الشتيمة، التي نعتبرها نحن المواطنين ما بعد الحداثيين أمرا جارحا، تعترف للآخر بأنه شخص، ولو كان ذلك بطريقة وقحة . وبهذا تعتبر جزءا من اللغــة، ولا يمكــن تشــبيهها، بأي حال من الأحوال، بالعنف المادي .وإذا كان بإمكان اللغة أن تنتج خطابــات مــن مثل الشتيمة أو التهديد اللذين يحدثان آثارا قريبة من العنف المادي، فمن الخطر، من مــنظورين سياسـويــيكولوجي، الخلط بين هذا النوع من الخطاب وهذا العنف . وليس الكلام العمومــي، في ذاتــه، ضــمانا للتحضــر؛ فما هو إلا مؤسسة تجبر من يستعمله على الالتزام ببعض المواضــعاتكتوجــيه الكــلام إلى مستمع ما . ولما كان مجتمعنا واعيا ببُعد العنف المحتمل كمونُه في الخطــاب، فقــد رأى إمكان الاحتماء منه بإصدار قوانين تحدد قواعد استعمال اللغة، من أجل بلاغة أطلق عليها [البلاغة] اللائقة سياسيا. إن هذه البلاغة اللائقة سياسيا، التي طالبت بها الطبقة السياسية، والــتي تم التنظير لها في بعض الجامعات، وخصوصا الأنجلوسكسونية، أرادت الإعلان، مسبقا، عما هو مقــبول أو مردود في مستوى الخطاب ومن أجل هذا حددت مسردا من البراهين المعتبرة غير لائقة أو خادعــةفيفيــنوس الــزمن القديم و "الاستدلالات الزائفة" أو الخُدَع اعتُبِرَت استدلالات أو تعليلات مغلــوطةً في مســتوى المنطق خاصة . وقد امتد التشهير بالبرهنة التي اعتبرت خادعة، شيئا فشيئا، إلى المعــايير المــتعلقة بإثــارة العاطفة وانتقاد الأشخاص، واستعمال العنف اللفظي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وهذا قصد محمود؛ إذ يتعلق الأمر بحماية المواطن بضمان خطاب تعكس نوعيته المنطقية اللياقة السياسية.أن نقل المنطق إلى السياسة أدى إلى نوع من اللَّبس في الأحكام . لقد أريد الاعتقاد أن ما يشــوب المــنطق أمارة على ما يشوب السياسة: فما هو غير لائق سياسيا كان بسبب صياغته المنطقية العرجاء.ويتوارى خلف هذه المحاولة ل " تسنين " البلاغة في سبيل حماية المواطن تصورٌ خطر ومغلوط للغــة والسياسة . وهذا التصور موروث مباشرة من نظرتنا القديمة والعجيبة للغة التي ترى في اللغة، في الآن نفسه، مرآة وفية للواقع وأداة سلطة مؤذيةً . ووفق هذه النظرة للأشياء، تحتمل كل عبارة قسطا من الخــداع، ما دامت اللغة لا تبلغ، مهما اجتهدت، مستوى رفيعا من الدقة في التمثيل . وما دامت اللغة متواضــعا عليها وإنسانية، أي معرضة للخطأ، فإنها تمثل الواقع وفق النمط السميائي لا الأيقوني. وفوق ذلــك فإن التمثيلات تتطور مثلما تتطور النظرة إلى العالم . وهكذا فإننا نستعمل مجموعة من العبارات تشــهد على نمط من التفكير، أصبح اليوم عتيقا. إننا نقول " طلعت الشمس " و" غربت الشمس "مع

العلـــم أننا نعرف أن الأرض هي التي تدور . ولكن من يفكر في أن يصف هذا النوع من العبارات بأنه خادع؟ فليست اللغة المرآة التي تعكس الواقع، وإنما هي تراث الإنسانية، وهو الأمر الذي ما يزال يحظى بالاحترام.

لا تخلق الأشياء بالتسمية:

إلى جانـــب البحث عن الصفاء اللغوي، تستند البلاغة اللائقة سياسيا أحيانا إلى تصور ثانٍ للغـــة عجيبٍ: التصور الذي يفترض أن للكلام القدرة الخارقة على خلق الواقع . فإذا كانت بعض الـــتلفظات ضرورية لبناء الحياة السياسية والعلمية والفنية، فلا واحد منها، ولو كان صوريا، بمستطاعه خلـــق الحقيقة المادية بتسميتها . لقد ولى ذاك الزمن الذي ساد فيه الاعتقاد بأن " خلق الشيء يكمن في تســـميته "كما كان حال الفكر السحري أو الديني :" قال الرب: " ليكن النور"؛ " ثم كان النور ". ففي فكر علماني، الحقيقة الوحيدة التي يمكن خلقها بوساطة اللغة، هي الحقيقة المؤسسية .يفتتح الرئيس الجلســـة بقـــوله :" افتـــتحت الجلســـة "، وبهاتين الكلمتين يفتتح الجلسة. وتقبل الجماعة هذه الحقيقة الاجتماعـــية الـــتي تم خلقها بمواضعة معروفة ومتعارف عليها . وما تزال البلاغة اللائقة سياسيا تنقل، أحـــيانا، بطـــريقة واعـــية تقـــريبا، هـــذا التصور العجيب للغة الذي عفا عنه الزمن . فمثلا نجد هذه الإديولوجية التي تؤسس نوعا من الخطاب الذي يناضل من أجل تأنيث أسماء المهن والكفاءات . وهكذا يمكنـــنا أن نقـــرأ في مقدمة كتاب يعالج [مسألة] تأنيث الأسماء:" بتأنيث اللغة نعيد إلى المرأة هويتها، الـــنوعَ الـــذي تنتمـــي إلـــيه؛ و [به] نعيد إليها صورة شخصيتها الاجتماعية، وتميزَ عملها، ودرجَتها وكفاءتَها. إنه إعادة الرؤية إلى النساء ".

وقـــد نتصور أن تأنيث أسماء المهن أو الكفاءات مرحلة مهمة في النضال النسواني . ويبقى أن الاســـتدلال المستعمل هنا، مستند بالأساس إلى التصور العجيب للغة على أنها قادرة على خلق الواقع الـــذي تســـميه. الحال أنه من المهم ألا نخطئ مجال النضال، وألا نجـــعل لبعض الوقائع اللسانية سلطة سياسية كبيرة.

فالـــبلاغة اللائقـــة سياسيا مؤسسة إذن، على تصورات عن اللغة متجاوزة وساذجة . وتعكس هذه الرؤى، الموروثة مباشرة عن أفلاطون، الصعوبة المزمنة التي يعاني منها المواطن غير المستأنس بمسألة البلاغة، في اتخاذ مسافة حقيقية بينه وبين المواضعة . فإما أن المواضعة هي كل شيء، ويضحي الخطاب

[أمرا] خارقا قادرا على خلق أي واقع، حتى العنيف منه؛ وإما أن المواضعة لا شيء، وتُتصور اللغة على أنها نفاق فارغ من كل معنى، يستعملها الأقوياء من أجل خداع الشعوب.

- النص مقتطف من كتاب

Emmanuelle Danblon : Argumenter en Démocratie,éd. Labor, Bruxelles,2004, p.p.59-66.

RenéGirard : Le Bouc émissaire, Paris , Grasset, p.23-1

صدر حديثا عن منشورات جامعة مولاي إسماعيل